فرح الانضباط

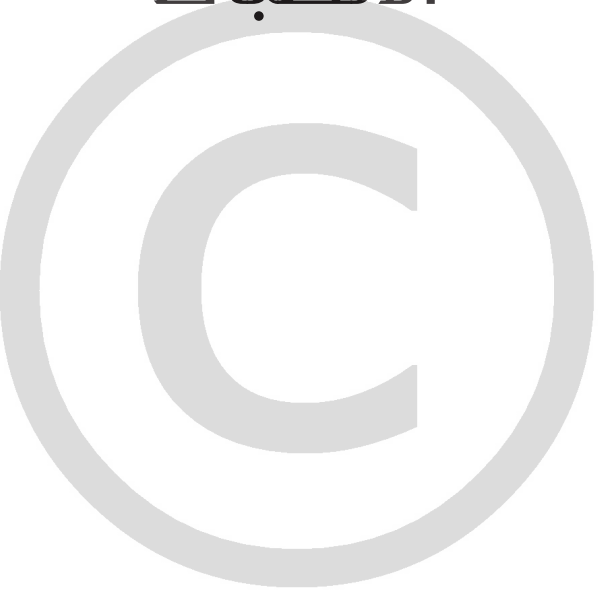

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

فرح الانضباط

سبيلُ النموِّ الروحي

ريتشارد فوستر

ترجمة

سعيد فارس باز

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أوفير
ophir

Copyright © **2009 by Richard J. Foster, L.C.C.**
Originally published in the U.S.A. by HarperSanFrancisco, San Francisco, California under the title *"Celebration of Discipline"*, copyright © by Richard J. Foster, L.L.C.,1998.

فرح الانضباط

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٩
حقوق الطبع محفوظة

Arabic Edition Copyright © 2009 by Ophir Printers & Publishers.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الاردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+
فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١١/٤٤٨٢
ISBN 978-90-5950-098-3

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

شكر وعرفان ٧

تقديم بقلم د. إلتُن تروبلُد ١١

مُقدِّمة ١٣

١. الانضباطاتُ الروحيَّة: بابٌ إلى الحُرِّيَّة ٢٥

القسم الأوَّل: الانضباطات الداخليَّة

٢. انضباطُ التأمُّل ٤١

٣. انضباطُ الصلاة ٦٣

٤. انضباطُ الصَّوم ٧٩

٥. انضباطُ الدِّراسة ٩٧

القسم الثاني: الانضباطات الخارجيَّة

٦. انضباطُ البساطة ١١٧

٧. انضباطُ العُزلة ١٣٧

٨. انضباطُ الخضوع ١٥٣

٩. انضباطُ الخدمة ١٧١

القسم الثالث: الانضباطات الجماعيَّة

١٠. انضباطُ الاعتراف ١٩١

١١. انضباطُ العبادة ٢٠٩

١٢. انضباطُ الإرشاد ٢٢٩

١٣. انضباطُ الاحتفال ٢٤٧

الملاحظات ٢٦٣

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

شكر وعرفان

١٩٧٨

من الأفضل أن تؤلَّفَ الكُتبُ بالتشارُك. فأنا مَدينٌ كثيرًا لأولئك الذين أحاطت حياتُهم بي وجَوهروا أفكار هذا الكتاب. وبفضل صداقة دَلَس ولارد وتعليمه أدركتُ أوَّلًا معنى الانضباطات الرُّوحيَّة وضرورتها. فإنَّ حياته تُجسِّد المبادئ التي يتضمَّنها هذا الكتاب.

كذلك أدينُ بالكثير لِبَس بُلجِن، إذ قرأتْ بانتباهٍ وبروح الصلاة كلَّ سطرٍ من هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا. وقد عزَّز حسُّها الإيقاعيُّ مقروئيَّة هذا الكتاب أيَّ تعزيز. أمَّا كِن ودوريس بُويس فقد ساعداني أكثر ممَّا سيعرفان يومًا بتشجيعهما وحماستهما الثابتَين. وأضافت مقدارًا كبيرًا مساعدةُ كُوني ڤارْس، في الطِّباعة واللُّغة والاستبشار. كما أنَّ ماري مايتُن عملت بغير انقطاع في طباعة المُسَوَّدة الأُولى والنصِّ النهائيِّ على السواء. وقد علَّمني ستان ثُورنبرغ عنِ انضباط الخدمة بكلامه وسيرته. وقدَّمت رايكِل هِنشَو مهاراتِها كقارئة خبيرة للتجارب الطِّباعيَّة. وتشكُّراتي الخاصَّة لكنيسة الفْرَندز في نيوبِرغ على رفع الأعباء عنِّي كي أتفرَّغ للكتابة في الأسابيع الأخيرة من تأليف هذا الكتاب، ولا سيَّما لِرُون وُدوَرد الذي زادت أعباؤه الرَّاعويَّة إذ نقصت أعبائي.

وأشكُر زوجتي كارولين، وولدَينا جُول وناثان، على صبرهم الفائق طوالَ فترة كتابة هذا الكتاب.

Copyrighted Material
Ohhh Printers & Publishers

١٩٨٨

ها قد مضى عقدٌ من الزَّمَن على نشر فرح الانضباط أوَّلَ مرَّة. وما زلتُ أستصدقُ القولَ إنَّ من الأفضل أن تؤلَّفَ الكُتبُ بالتَّشارك؛ إنَّما الفارق الوحيد الآن هو أنَّ الجماعة التي أنا مَدينٌ لها باتَت أكبرَ بكثير. فعلى مرِّ السنين كتب إليَّ أشخاصٌ عديدون ليُشجِّعوا ويتحدَّوا ويُصوِّبوا ويحثُّوني على التفكير. أضِف أنَّ كثيرين حدَّثوني شخصيًّا بشأن اختباراتِ جهادهم وتعلُّمهم ونُموِّهم. فهؤلاءِ جميعًا وغيرُهم علَّموني عنِ الحياة الروحيَّة وأسهموا في هذه الطَّبعة المُنقَّحة.

وأودُّ أن أخُصَّ بالشُّكر زوجتي كارولين التي علَّمتني على مرِّ السنين عنِ السَّير مع الله أكثرَ ممَّا تستطيعُ الكلمات أن تُعبِّر عنه. حتَّى إنَّ إهداء هذا الكتاب إليها بات الآن أكثرَ وثاقةً ممَّا كان قبل عشر سنين. وأُريد أن أشكر أيضًا مُساعِدَتي الإداريَّة ليندا غريبيل التي عملت بلا كَلَلٍ ولا مَلَل في حذافيرِ هذه الطبعة.

وإذ أُراجِع **فرح الانضباط** يَصعقُني جدًّا ضَعفُ الكلمات. فعلى أفضل حال، هي شهاداتٌ لحقِّ الله مُتكسِّرةٌ ومُتجزِّئة. حقًّا إنَّنا ننظر عبرَ زجاجٍ قاتم! ومع ذلك تصعقني أكثرَ كثيرًا بَعدُ حقيقةُ كون الله قادرًا على أن يأخذ أشياءَ غيرَ وافيةٍ ولا كاملة، وجامدةً وباردة، إلى أبعدِ حدّ، نظيرَ الكلمات المطبوعة على ورق، ويستخدمها لتغيير حياة الناس. أمَّا كيف يحصل هذا، فأمرٌ لا أدريه. إنَّها مُعجزةُ نعمة، وهي تُشير إلى هذه الحقيقة: إذا كان على هذه الصفحات ما يبثُّ الحياة فيك، فإنَّه ليس منِّي. إنَّما المجدُ لله وحدَه!

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

١٩٩٨

منذ عشرين عامًا كتبتُ: "من الأفضل أن تؤلَّفَ الكُتبُ بالتشارُك". ومنذ عشرة أعوام أكَّدت من جديدٍ ذلك الإقرار، مُضيفًا: "إنَّما الفارق الوحيد

الآن هو أنَّ الجماعة التي أنا مَدينٌ لها باتت أكبر بكثير". فهكذا هي الحال اليوم، ضعفَين وثلاثة أضعاف.

غير أنّي أودُّ أن أُضيف فارقًا آخر الآن لم يكن قائمًا آنذاك: أنَّ أفرادًا مُتفرِّقين من جماعتنا المتزايدة دائمًا قد عبروا مُنذئذٍ واديَ الظِّلّ. وهمُ الآن يَحيَون في الضِّفَّة الأُخرى فائضين- ولا شكَّ عندي- فرحًا تامًّا ورضًى كاملًا.

كانت بَس بُلجِن هيَ الأُولى بين أُولئك الذين عبروا ذلك الوادي. وبينما كنتُ أكتب **فرح الانضباط** أوَّلَ مرَّة، كنتُ ألتقي بَس بُلجِن أُسبوعيًّا، فتُقوِّم عملي تقويمًا نقديًّا. وقد كانت بَس شاعرة، فأضفتْ لمسةً شعريَّةً على كلِّ ما كتبتُه. ولكنْ حدث أكثر من مجرَّد النَّقد والتنقيح، إذ توطَّدت بيننا أواصُر صداقةٍ غنيَّةٍ وباقية.

ثُمَّ انتقلتُ إلى موقع جديد، وأنا لا أدري هل نلتقي ثانيةً، أنا وبَس، في هذه الضِّفة من الوادي. ثُمَّ التقينا، وأحسَّ كلانا أنَّ ذلك آخرُ لقاءٍ يجمعنا، وعبَّرنا عن إحساسنا هذا. فتحدَّثنا واستعَدْنا الذِّكريات، وأطلعَتْني على قصيدةٍ جديدةٍ نظمَتها. ثُمَّ قرأتُ لها بصوتٍ مُرتعشٍ الفِقرةَ الختاميَّة من آخِر كتاب في سلسلة عالم نارنيا: "ولكنَّ الأشياء التي بدأت تحدث بعد ذلك كانت فائقة العظمة والجمال بحيثُ لا يمكنني أن أصفها. وبالنسبة إلينا، هذه نهاية القصص كلِّها. إنَّما يمكننا أن نقول حقًّا بمنتهى الصِّدق إنَّهم كلَّهم عاشوا في سعادةٍ غامرة ونعيمٍ مُقيمٍ إلى الأبد. ولكنْ بالنِّسبة إليهم لم تكُن تلك إلَّا بداية القصَّة الحقيقيَّة. إذ إنَّ كلَّ حياتهم في هذا العالم وجميعَ مغامراتهم في نارنيا لم تكُن إلَّا الغلاف وصفحة العنوان. فها هم الآن يبدأون أخيرًا الفصل الأوَّل من القصَّة العظيمة التي لم يقرأها قطُّ أحدٌ على الأرض. وهي قصَّة تستمرُّ إلى الأبد، وكلُّ فصلٍ فيها أجملُ من سابِقِه".

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ولَّما فرغتُ من القراءة، جلسنا كِلانا صامتَين ثُمَّ غادرتُ وسافرتُ عائدًا إلى بيتيَ الجديد. وبعد مدَّةٍ قصيرة غادرَت هي أيضًا، مسافِرةً إلى بيتها الجديد ما وراءَ وادي الظِّلّ.

إنَّ خَسارةً كهذه واقعٌ يجب أن نواجهَه كلُّنا في وقتٍ من الأوقات، وربَّما مرارًا وتكرارًا. فاقرأ إذًا هذه الكلمات المُشجِّعة مِن نظم تشارلز وسلي:

إنْ فرَّق الموتُ بين صديقي وبيني،
فأنتَ، يا ربُّ، لا تلومُني على حُزني،
ولا تعبس إذ ترى دموعي؛
كابحًا جماحَ عواطفي المضطربة
بل تطلب منِّي أن أنتحبَ بأسًى مُتصبِّر
على الذين يرقدون فيك.

أُحِسُّ رجاءً خالدًا قويًّا،
يرفعُ روحي النائحة
فوق حِملها الثقيل كالجَبَل؛
مُفتدًى من الموتِ والحُزن والألَم
فعمَّا قريبٍ ألتقي صديقي من جديد
على ذراعَيِ الله الحنون.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ستنقضي لحظاتٌ زائلةٌ قليلةٌ بَعد،
ثُمَّ يردُّ الموتُ البَرَكةَ التي خطفها؛
فإليَّ تُرسِلُ، يا ربُّ، الدَّعوة،
وتعيدُ إليَّ صديقيَ الذي رحل،
في ذلك اليوم الأبديِّ السعيد.

تقديم

ثمَّة كُتبٌ كثيرةٌ تُعنى بحياة الإنسان الداخليَّة. ولكنْ ليس من كُتب كثيرة تمزج الأصالة الحقيقيَّة بالنزاهة الفكريَّة. غير أنَّ هذا المزيج بالذات هو ما وُفِّق ريتشارد فوستر إلى إنتاجه. فلمَّا كان المؤلِّف راسخًا في النِّتاج التأمُّليِّ الكلاسيكيّ، أعطانا دراسةً دقيقةً يمكن أن تُقدَّر لذاتها مدَّةً طويلة. ومع أنَّ الكتاب الحاليَّ ينمُّ عن مديونيَّةٍ للكلاسيكيَّات، فهو ليس كتابًا فيها، بل بالأحرى يُمثِّل عملًا أصيلًا حقيقيَّ الأصالة.

وما يلفتنا في الحال هو طبيعة الشموليَّة التي يتميَّز بها هذا المؤلَّف. فلدينا اليوم كتبٌ مُعاصِرة كثيرة تتطرَّق إلى نواحٍ مخصوصة من الحياة الداخليَّة، ولكنَّ هذا يختلف عنها بِكَونه يتناول تشكيلةً مدهشة من المواضيع المهمَّة، وكثيرٌ من طرافة معالجتها ينجم عن جُرأة الكتاب. فقد تولَّى الكاتبُ النظر في طيفٍ عريض من الاختبارات، من الاعتراف إلى البساطة إلى الفَرَح. وبما أنَّ النِّتاج المُنجَز هو حصيلةُ مُطالعةٍ واسعة وتفكيرٍ دقيق، فليس هذا من نوع الكتب التي يمكن تصفُّحها بسرعةٍ أو استخفاف.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

إنَّ مصادر التبصُّر شتَّى، وفي طليعتها الأسفارُ المقدَّسة وكُتب التأمُّل الكلاسيكيَّة المعتبَرة، ولكنْ ليست هذه هي الينابيع الوحيدة التي يستقي منها المؤلِّف. فالقارئ النَّبيه سيُلاحظ سريعًا مديونيَّةً للمفكِّرين العالميِّين أيضًا. ونظرًا لكون المؤلِّف ينتمي إلى الصَّاحبيِّين (الفْرَندز أو الكْوَيكرز)، فليس منَ المُفاجئ

أن تبرز إسهاماتُ الكُتَّاب الصاحبيِّين الكلاسيكيِّين، وهي تشتمل على آثار جورج فُوكس وجون وُلمان وحنَّة وِتأوُل سميث وثوماس كَلِي، وكثيرين غيرهم. وليس الغرض هنا طائفيًّا، بل هو مسكونيٌّ أصيل، بما أنَّ التبصُّرات المهمَّة لا ينبغي أبدًا أن تقتصر على الجماعة التي تنشأ فيها. وعليه، فإنَّ ما يُقدَّم إلينا هنا هو مثالٌ في عموميَّة المُشاركة.

هذا، وتنفرد معالجةُ البساطة بقيمةٍ مُميَّزة، جزئيًّا لأنَّها ليست بسيطة. فبالحقيقة أنَّ "المبادئ الضابطة" العشرة المُتعلِّقة بالبساطة- والتي تُشرَح في الفصل السادس- هي بحدِّ ذاتها مُسَوِّغٌ كاف لظهور كتابٍ جديد عن الحياة الروحيَّة. ذلك أنَّ المبادئ العشرة المعروضة، رُغمَ تجذُّرها في الحكمة القديمة، تُقدَّم مُعاصِرةً على نحوٍ مدهش.

يعي الكاتب جيِّدًا جدًّا أنَّ التشديد على البساطة قد يغدو فخًّا بحدِّ ذاته. لهذا السبب لم يقبل أن يحسم في أيِّ أمرٍ بديهيٍّ مثل اعتماد الأزياء البسيطة، وإن كان قد قال بإحكام: "دعك من الأزياء، إنَّما اشترِ فقط ما تحتاج إليه". فَهَهُنا اقتراح ثوريٌّ، إن اعتُمِد على نطاقٍ واسع يُحرِّر تحريرًا هائلًا مَن كانوا ضحايا المُعلنين، ولا سيَّما أُولئك الذين يعلنون عبر شاشة التلفاز. ولا بدَّ أن تليَ ثورةٌ حضاريَّةٌ حقيقيَّة إذا أطاعت أعدادٌ كبيرةٌ من الناس الأمرَ الصريح: "كُفَّ عن التكديس!"

إنَّ أكبر المشكلات في زماننا ليست تكنولوجيَّة. فهذه نتولَّى أمرها بطريقةٍ لا بأس بها. وليست هي أيضًا سياسيَّة أو اقتصاديَّة؛ لأنَّ المصاعب في هذين المجالَين- وإن كانت مُربكة- تبقى ثانويَّة. إنَّما المشكلات الكُبرى هي خُلقيَّة وروحيَّة، وما لم نُحرز بعض التقدُّم في هذَين الميدانَين، فإنَّنا قد لا نبقى مجرَّدَ بقاء. فعلى هذا النَّحو انحطَّت الحضاراتُ وهَوَت في الماضي. ولهذا السبب أُرحِّب بِنِتاجٍ ناضجٍ حقًّا يتناوَلُ تعهُّدَ حياةِ الرُّوح.

د. إلتُن تروبلُد

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

مُقدِّمة

من العجيب في نظري كيف يستخدم الله خَربَشاتٍ على ورق لإنجاز عمله في قلوب الناس وعقولهم. فكيف تُنقَل هذه الخربشات إلى حروفٍ وكلماتٍ وجُمَل، وأخيرًا إلى معنًى؟ حقًّا إنَّ لنا أن نغبط أنفسنا على معرفتنا قليلًا عن وظيفة الناقلات العصبيَّة في الدِّماغ، أو عن كيفية تأثير بروتينات الإندورفين في التعلُّم والتذكُّر، ولكنَّنا إذا كُنَّا صادقين فإنَّنا نعرف أنَّ التفكير بحدِّ ذاته لُغز. فالحمد والتسبيح هما ردَّة الفعل الوحيدةُ المُوافِقة.

عند كتابتي هذه الكلمات، كان قد مضى عقدانِ من الزَّمَن على نشر مجموعة هذه الخَربَشات، **فرح الانضباط**، أوَّلَ مرَّة. وبعد العقد الأوَّل، أراد الناشرون، وقد حيَّرتهم أقدميَّةُ الكتاب وشعبيَّتُه دون شكّ، أن يحتفلوا بهذا المَعلَم، فطلبوا إليَّ أن أُراجع النصَّ الأصليّ، الأمرُ الذي سرَّني أن أفعله. والآن، بعد عقدٍ آخر، يستمرُّ الواقعُ المُحيِّر. فبطريقةٍ ما (ومَن ذا يستطيع أصلًا أن يُفسِّر كيف ذلك؟) ما زال الناس يجدون على صفحات هذا الكتاب عونًا لهم في مسيرتهم اليوميَّة مع الله. واحتفالًا بهذه الذكرى السنويَّة العشرين، طلب إليَّ الناشرون أن أكتب مقدِّمة، ومن جديدٍ سرَّني أن أستجيب. ولعلَّ من المناسب، تلبيةً لطلبهم، أن أحكيَ لك كيف برز إلى الوجود هذا الكتاب الذي في يدك.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

الإفلاس الروحيّ

عند تخرُّجي حديثًا في معهد اللاهوت، كنتُ مستعدًّا لإخضاع العالم. وكان أوَّلَ مركز عُيِّنت فيه كنيسةٌ صغيرة في منطقةٍ مزدهرة من كاليفورنيا الجنوبيَّة. فقلتُ لنفسي مُتأمِّلًا: "هُنا فُرصتي لأُبيِّن لقيادة الطائفة، لا بل للعالم كلِّه، ما يسَعُني أن أفعله". وصدِّقني أنَّ رؤى جاوزت كثيرًا جدًّا أعداد حلوى السَّكاكر كانت تتراقص في رأسي. ولكنَّني صحوتُ قليلًا لمَّا عمد الرَّاعي السابق، لدى علمِه بتعييني، إلى وضع ذراعه على كتفي قائلًا: "إذًا، يا فوستر، حان دورُك للمُكوث في الصحراء!" غير أنَّ تلك "الصَّحوة" لم تَدُم إلَّا هُنيهَةً. إذ دار في خاطري هذا الفِكر وصدَّقتُه: "ستصير هذه الكنيسة نورًا متوهِّجًا موضوعًا على جَبَل، وسيُقبِل الناسُ كالسَّيلِ فعلًا".

وبعد ثلاثة أشهُر تقريبًا، كنتُ قد أعطيتُ تلكَ الجماعة الضئيلة كلَّ ما أعرفه، ثُمَّ زدتُ قليلًا، ولكنَّ ذلك لم يُجدِهم نفعًا. ولم يبقَ لديَّ ما أُعطيه. فقد أفلستُ روحيًّا، وقد علمتُ ذلك. وكفاني ذلك المقدارُ من "النور المتوهِّج الموضوع على جبل"!

لقد تخطَّت مشكلتي أن يكون عندي ما أقولُه من يوم أحدٍ إلى آخر. إذ كانت مشكلتي أنَّ ما كنتُ أقوله فعلًا لم يكن قادرًا قطُّ على مُساعدة الناس. لقد افتقرتُ إلى الجوهر، إلى العُمق. فإنَّ الناس كانوا جياعًا إلى كلمةٍ من عند الله، ولم يكُن لديَّ أيُّ شيءٍ أُعطيهم إيَّاه. لا شيءَ بتاتًا.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ثلاثة مؤثِّرات مُتقارِبة

إنَّما بحكمة الله، كانت ثلاثةُ مؤثِّراتٍ تتقارَب آنذاك في تلك الكنيسة الصغيرة، قُدِّر لها أن تُغيِّر اتِّجاه خدمتي، بل بالحقيقة وجهةَ حياتي كلِّها. وتيسَّر

لهذه المؤثِّرات معًا أن تمدَّني بالعُمق والجوهر اللذَين كنتُ شخصيًّا في حاجةٍ إليهما، وبالعُمق والجوهر اللَّذَين أدَّيا بي، في الوقت المؤاتي، إلى خطِّ كلمات **فرح الانضباط**. ولكنَّ في هذا استِباقًا لقصَّتي.

أمَّا أوَّل أمرٍ جرى فقد عجَّل حدوثَهُ تدفُّق سيلٍ من المحتاجين حقًّا إلى جماعتنا الصغيرة. وهؤلاءِ إنَّما تدفَّقوا فعلًا كالسَّواقي بعد عاصفةٍ رعديَّة. ولَكَم كانوا جائعين إلى الجوهر الروحيِّ، وكم كانوا أيضًا مستعدِّين لفعل أيِّ شيءٍ تقريبًا في سبيل الحصول عليه! وقد كان هؤلاء هم مَنبوذي حضارة يومنا المُنطلِقة في المسار السريع- "مَن يجلس الآخرون فوقهم، ويبصقون عليهم، ويسبقونهم ويُجاوِزونهم" - فكان احتياجهُم باديًا للعِيان. وقد بدا أيضًا للعِيان عجزي عن توفير الرِّعاية الجوهريَّة لهم.

هذا الافتقار إلى أيَّة كثافةٍ روحيَّة حقيقيَّة أدَّى بي، على نحوٍ شبه غريزيّ، إلى أساتذة التأمُّل والتعبُّد في الإيمان المسيحيّ: أُغسطينوس أسقف هيپون، وفرنسيس الأسِّيزيّ، وجوليان الزاهد، وعديدين غيرهم. فبطريقةٍ ما، لمستُ أنَّ هؤلاء الكُتَّاب الأقدمين عاشوا وتنفَّسوا الجوهرَ الروحيَّ الذي كان يلتمسه هؤلاءِ الأصدقاءُ الجُدد في اجتماعنا الصغير التماسًا ماسًّا.

يقينًا أنِّي اطَّلعتُ على مكتوباتٍ كثيرين من هؤلاء الكُتَّاب في الإطار الأكاديميّ. ولكنَّ ذلك كان اطِّلاعًا من النَّوع العقليِّ المعزول. أمَّا الآن فقد قرأتُ بعينَين مختلفتَين، إذ كنتُ أتعامل يوميًّا مع احتياجاتٍ بشريَّة تفطر القلبَ وتسحق النفس وتُبدِّد العزم. فهؤلاء "القدِّيسون"، كما ندعوهم أحيانًا، عرفوا الله بطريقةٍ لم أعرفه أنا بها طبعًا. وقد اختبروا الربَّ يسوع بصفته الحقيقة الحاسمة في حياتهم. وقد حازوا رؤيا لله مُتأجِّجةً أعمَتهم عن كلِّ ولاءٍ مُنافِس. لقد اختبروا الحياة المَبنيَّة على **الصَّخر**.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

لم يكن يُهمُّ تقريبًا لِمَن قرأتُ في تلك الأيَّام: "ممارسة حضور الله" للأخ لورنس، أو "القصر الداخليّ" لتريزا الآفيليَّة، أو "يوميَّات جون وُلمان"، أو "معرفة القدُّوس" لتُوزر. فجميع هؤلاء عرفوا الله بطُرقٍ نائية جدًّا عن أيِّ شيءٍ اختبرتُه يومًا... أو حتَّى أردتُ أن أختبره! ولكنْ فيما استمررتُ في تشرُّب قِصَص أُولئك الرجال والنِّساء الذين تأجَّجت فيهم نار المحبَّة الإلهيَّة، بدأتُ أتوق إلى نوع الحياة هذا لنفسي. ثُمَّ أدَّى التَّوق إلى الطلب، والطلبُ إلى الوِجدان. وما وجدتُه أراحني، وعمَّقني، وكثَّفني.

أمَّا التأثير الثاني فقد جاءني من فردٍ في تلك الجماعة الضئيلة، هو الدكتور دَلَس وِلارد. وإذ كان دَلَس أُستاذ فلسفةٍ بارعًا، فقد كان متضلِّعًا من الكلاسيكيَّات، وفي الوقت نفسه ذا إدراكٍ ثاقبٍ للمشهد المُعاصِر. وهو علَّم جماعتنا الصغيرةَ والقليلةَ الخبرةِ دراساتٍ في رسالة رومية وسِفر الأعمال والموعظة على الجبل والانضباطات الروحيَّة، وأكثر من ذلك. إنَّما بصرف النظر عنِ الموضوع المُحدَّد، كان وِلارد دائمًا يجتذبُنا إلى داخل الصُّورة الكبرى. وقد كان تعليمه مؤسَّسًا على الحياة، يحترمُ دائمًا المصادرَ الكلاسيكيَّة، ويسعى دائمًا إلى إكسابها تعبيرًا حديثًا. هذه التعاليم زوَّدتني بالنظرة العالميَّة التي أمكنني بمُقتضاها أن أُنظِّم كامل تدرُّبي الأكاديميِّ والكتابيّ.

ولكنْ لم يقتصر الأمرُ على التعليم، أو بالأقلِّ على التعليم كما نُفكِّر فيه عادةً. إذ قام تواصُلٌ من القلب إلى القلب بين هذا الفيلسوف المُمتاز وتلك المجموعة الضئيلة والعامِّيَّة من تلامذة المسيح. فإنَّ دَلَس علَّمنا تمامًا في خضمِّ صراعاتنا وجراحنا ومخاوفِنا. إذ أنزلَ العقل إلى داخل القلب، وعلَّم من ذلك المركز العميق.

واليوم، بعد سنين كثيرة، ما زلتُ أستمتع بتأثير تلك الحلقات التي كانت

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

مُفعَمةً بالتعليم والحياة والصلاة. وقد كان ذلك بالطبع تعليمًا بالتشارُك. إذ كُنَّا نجلس بعضُنا في بيوتِ بعض، حيث كُنَّا نضحك معًا، ونبكي معًا، ونتعلَّم معًا، ونُصلِّي معًا. ونجمَ عن حيويَّةِ تلك المُناسبات البيتيَّة بعضٌ من أفضل أوقات التعليم، حيث كُنَّا نُطيل السَّهر أحيانًا، طارحينَ الأسئلة ومُناقشين القضايا، ومُطبِّقين حقَّ الإنجيل على أحوال الحياة. وكان من شأن دَلَس أن يتنقَّل بيننا مُعلِّمًا، دائمًا معلِّمًا. وهو كان صاحب موهبةٍ روحيَّةٍ ذات جاذبيَّةٍ في التعليم، كما أعتقدُ يقينًا. ذلك هو التعليم بحكمة، التعليم بشغف، التعليم من القلب. وكنَّا نختبر دائمًا شعورًا بما هو مُقدَّسٌ وفائق.

أمَّا التأثير الثالث فقد أتى أصلًا على يد قِسِّيس لوثريّ، هو وِليَم لوثر ڤاسِوغ. (ومَن كان اسمه "وِليَم لوثر ڤاسِوغ" كيف يُعقَل ألَّا يكون إلَّا راعيًا في كنيسة لوثريَّة؟) فإنَّ كنيسة وِليَم، وقد كانت كبيرةً وناشطةً ومؤثِّرة، خيَّمت على جماعاتنا الصاحبيَّة الضئيلة. غير أنَّ ما شدَّني إلى وِليَم لم تكن له علاقةٌ بما هو "كبير" أو "مؤثِّر" أو حتَّى "لوثريّ". لا بل إنَّ ما رأيتُه كان شخصًا مُتعطِّشًا إلى أُمور الله. ومن ثَمَّ طلبتُه وقلتُ له: "وِليَم، أنت تعرف عنِ الصلاة أكثر ممَّا أعرفُه. فهلَّا تُعلمني كلَّ ما تعرفه!"

والآن، كانتِ الطريقة التي علَّمني وِليَم بها عنِ الصلاة هي بالصلاة... الصلاة الحيَّة الحيويَّة، الصادقة القلبيَّة، الجَذلى الفاحصة للذات. وإذ فعلنا ذلك، بدأنا بعدَ مُدَّة نختبر "الغوص المُمتِع في اللاهوت" ذاك الذي تتحدَّث بشأنه مدام غِيُون. وبكلِّ صدقٍ أقول إنَّه كان لذاك الاختبار كثيرٌ من الوَقع والصِّبغة اللَّذَين تميَّزتْ بهما الاختباراتُ التي سبق أن قرأتُ عنها في آثار أساتذة التأمُّل والتعبُّد.

وقد كان الانتقالُ إلى قلب الصلاة هذا تأثيرًا ذا شِقَّين فعلًا. فإنَّ اختباراتي

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

في الصَّلاة مع وِليَم عزَّزتها اختباراتُ امرأةٍ ماضية العزيمة على نحوٍ عجيب، هي بَث شابيرو، وقد كانت أُولى الشَّيخات في جماعتنا الصغيرة. كانت بَث ممرِّضة في مستشفًى كبير، وقد اعتادت بعد العمل في المناوبة الليليَّة أن تأتيَ إلى مبنى الكنيسة في الصباح الباكر، حيث نقضي معًا (هي وأنا) ساعةً أو ساعتَين في الصلاة لأجل الناس، جميعِ أنواع الناس، سواءٌ في اجتماعنا أو خارجَه. فأيًّا كانوا ومهما كانوا، كانت بَث ترغب في الصلاة لأجلهم.

ثُمَّ إنَّنا كُنَّا أغلب الأحيان نُناقِش قضايا لاهوتيَّةً وإيمانيَّةً وحياتيَّة. ومهما تحدَّثنا بشأنه، كانت بَث تُجرِّبه في المُستشفى. فإذا ناقشنا ما يُعلِّمه الكتاب المقدَّس عن "وضع الأيدي"، كانت بَث في عملها تدسُّ يديها في القُفَّازَين المطَّاطيَّين إلى داخل مِحضَن، وتضعُهما على طفلٍ خديج، وتُصلِّي بصمتٍ ومحبَّة، ثُمَّ تُراقِب الصغير فيما تتحسَّن صحَّته وسلامتُه. وقد كانت هذه الأُمور ممَّا تفعله بَث، لا بين حينٍ وآخر فحسب، بل مرارًا وتكرارًا. فعلى يد بَث تعلَّمتُ ضرورة الإتيان بالحقائق الروحيَّة إلى مُعترَك المعاناة البشريَّة.

وهكذا تقاربَت هذه المؤثراتُ الثلاثة في تلك الأيَّام من خدمتي الراعويَّة الباكرة، فكانت النتيجة ثورةً هادئة، داخلًا وخارجًا. وفي جماعتنا التي ضمَّت طالبين مُحتاجين، كُنَّا نُجرِّب كلَّ ما نتعلَّمه. وقد كانت تلك أيَّامَ اندفاع، إذ لمسنا أنَّنا نصبو إلى أمرٍ جليل. فكنَّا نُطرِّق على سندان الحياة اليوميَّة كلَّ ما ظهر لاحقًا في **فرح الانضباط**. غير أنَّ هذه التأثيرات وحدها لم تدفعني إلى الكتابة الفعليَّة. إذ كانتِ الحاجة تدعو إلى المزيد.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ثلاثة حوافز فعَّالة

هذا "المزيد" جاء على شكل ثلاثةِ حوافزَ منفصلةٍ ومختلفةٍ تمامًا. وقد

جاء أوَّلُها على يد بِل كاثرز، وهو مُرسَلٌ سابق وصاحبُ تمييزٍ وحكمةٍ نادرَين. وحدث الأمرُ هكذا: في أعقاب ثلاثة أيَّام من الصَّوم والصلاة، شعرتُ بدافع إلى الاتِّصال ببِل ودعوته ليُصلِّيَ لأجلي. أجل، ذلك كان مدى إرشادي- أن يُصلِّيَ لأجلي فحسب- ولم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ عمَّا ينبغي أن يُصلِّيَه، ولا حتَّى عنِ السبب. وقد وافق على المجيء.

لَمَّا وصل بِل، كان أوَّل شيءٍ فعله حالًا أنَّه بدأ يعترف لي بخطاياه. وجلستُ في مكاني مصعوقًا. "ماذا هو فاعل؟ إنَّه الحكيمُ الروحيّ!" ذلك هو ما جال في خاطري، ولكنَّني انتظرتُ صامتًا. حتَّى إذا فرغ أخيرًا، تَلَوتُ عليه تلك الكلمات المحُرِّرة الواردة في ١ يوحنَّا ١: ٩ "إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادل حتَّى يغفر لنا خطايانا ويُطهِّرنا من كُلِّ إثم".

ثمَّ نظر بِل إليَّ مباشرةً- واخترقني بنظره تمامًا- وسألني بكل هدوء: "والآن، هل تُريد منِّي أن أصليَ لأجلك بَعد؟" لقد رأى ما في قلبي! إنَّه علم أنَّني كنتُ قد رفعتُه عاليًا على قاعدة بصفته واحدًا من مُعلِّمي الدين الروحيِّين المرموقين، وعمد إلى تحطيم ذلك إلى كومة من الرُّكام. وإذ صحَّاني تمييزُه، أجبتُ بكلِّ بساطة: "نعم، أُريد".

إذ ذاك وضع يديه عليَّ، وصلَّى واحدةً من أعمق الصلوات التي تلقَّيتُها على الإطلاق. وما زالت قوَّة تلك الصلاة تُرافقني اليوم. وليس في وسعي أن أبدأ بإطْلاعك على ما اتَّصفتْ به صلاتُه تلك من علوٍ وعمقٍ وطول وعرض، غير أنَّني أُفضي إليك بعبارةٍ واحدة تفوَّه بها، عبارةٍ مملوءةٍ بالقوَّة، عبارةٍ نبويَّة. إذ قال: "أُصلِّي طالبًا أن تُعطِيَه يَدَي كاتب".

لقد بلغ السَّهمُ مَقصِدَه. فما أزال أتوق إلى الكتابة منذ سنين. ولكنَّني لم أُطلع أيَّ نفسٍ حيَّة على هذه الرَّغبة الخفيَّة. وقد حال خجلي الشديد دون

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

الإفصاح عنها لأحد. إنَّما في ذلك اليوم شعرتُ بحصولي على قوَّةٍ لخدمة الكتابة. ومع أنَّ **فرح الانضباط** كان آنذاك طيَّ المستقبل، على بُعدِ سنين، فإنَّني باشرتُ فعلًا التَّتلمذَ الضروريَّ بكتابةِ كثيرٍ من المقالات الصُّحفيَّة.

أما الحافز الثاني فقد كان د. إلتُن تروبلُد، وهو مؤلِّفٌ محترم لنحوِ ستَّةٍ وثلاثين كتابًا. وكنتُ آنذاك أخدم ضمن فريقٍ رعويٍّ جديد شمالَ غربِ الباسيفيكيِّ في ما يدعوه مختصُّو نموِّ الكنائس باسم "الكنيسة الكبيرة". وقد كان ذلك مكانًا فيه بَدَتِ الأُمور جاريةً على ما يُرام مهما فعلتُ. كما كان ذلك وقتًا للتفكير مليًّا في الدُّروس المُستفادة، والنَّظرِ في إمكانيَّة تطبيقها على نطاقٍ أوسع.

في أثناء تلك الفترة، حضرتُ مؤتمرًا عامًّا للقادة الصاحبيِّين (الكْوَيكرز)، وكان بينهم الدكتور تروبلُد. وفي أعقاب المؤتمر، مكثتُ وزميلي في الخدمة رُن وُدوارد يومَين إضافيَّين للقيام بشيءٍ من التخطيط الوعظيِّ للأشهر المُقبِلة.

وهكذا اتَّفق لي أن التقيتُ الدكتورتروبلُد في رَدهة الفندق. ولا أبالغُ مهما أشدتُ باهتمامه ولطفه اللَّذَين أبداهما نحو شخصٍ غير معروفٍ لديه. وبعد لُحيظاتٍ من المحادثة، التفتَ إليَّ فجأةً وسألني أيَّ كتابٍ كنتُ أكتبُ. فوقع عليَّ السؤال وقوعَ الصاعقة، وتمتمتُ مُتلعثمًا بكلماتٍ تُفيد أنَّني لم أكن مستعدًّا لبذل الجهد الذي يستلزمه تأليفُ كتابٍ طويل، غير أنَّني كنتُ أكتب بِضعَ مقالات. فقال متأمِّلًا: "هَمْم، حسنًا، لا بأس في هذا. ولكنْ قريبًا يجب أن تكتب كتابًا!" وقد حملت كلماتُه مقدارًا بالغًا من السُّلطان والشأن بحيثُ لم أستطع إخراجها من وعيي. فقد تكلَّم بالحقِّ في قوَّة، وأثَّرَ فيَّ أيَّ تأثيرٍ في ذلك اليوم.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ولَمَّا رجعتُ إلى الدِّيار، تجاسرتُ على الكتابة إلى تروبلُد، مُفصحًا عن وجود فكرةٍ فعليَّة لديَّ بشأن كتاب، وأرفقتُ بالرِّسالة خلاصةً وجيزة لِما هو اليومَ **فرح الانضباط**. فأرسل إليَّ جوابًا رقيقًا ومُشجِّعًا ضمَّنه نصيحةً حازمة: "تيقَّنْ بأن

تجعل كلَّ فصل يدفعُ بالقارئ إلى الفصل التالي". وقد كانت تلك نصيحةً استهديتُ بها فعلًا في ترتيب فصول الكتاب.

كذلك توافر أيضًا حافزٌ ثالث. وبينما كان الاختباران الأخران حادَّين وحاسمَين، كان هذا الأخيرُ مُتطاوِلًا وغيرَ واضح المعالم. وقد جاء من كِن ودوريس بُويْس، وهما صديقان قديمان تولَّيا دورًا والِديًّا في حياتي بعد عبور والديَّ البيولوجيَّين واديَ الظلّ.

إنَّهما ساعداني بطُرقٍ لا تُحصَى. فلمَّا كنتُ طالب دراساتٍ عُليا، طبعَت لي دوريس على الآلة الكاتبة (في تلك الأيَّام الغابرة السابقة للكومبيوتر) كثيرًا من الأبحاث الفصليَّة، فضلًا عن أُطروحة الدكتوراة التي أعددتُها. وقد حرصَت دائمًا على إطراء أبحاثي، حتَّى تلك البالغة التِّقنيَّة بحيث لم تكن لديها إلَّا فكرةٌ ضئيلة عن موضوع الكتابة. وعلى مرِّ السنين، تحدَّث كِن معي في لاهوتيَّات الحياة العمليَّة، ومثَّلها لي خير تمثيل. وقد شجَّعَتني دوريس دائمًا، رُبَّما بإفراط. وقد حرص كِلاهما على ألَّا يقولا الكثير بشأن كتابتي، بل بالأحرى على تيسير الكتابة لي. فهُما حمَّساني من الخطوط الجانبيَّة، ووثقا بي حين لم أستطِع تقريبًا أن أثق بنفسي.

وفي إحدى الفترات الحَرِجة، سمح لي كِن ودوريس باستخدام بيتهما المتنقِّل حتَّى يُتاحَ لي حيِّزٌ للكتابة دون مقاطَعات. فكنتُ أجلس هناك، أُشكِّل الأفكار وأصوغ الكلمات، ثُمَّ أشطبُها وأُعيد صياغتها. وقد كتبتُ أُولى صفحات **فرح الانضباط** في ذلك البيت المتنقِّل على الطريق الخاصَّة أمام منزل كِن ودوريس.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

إنَّ هذه الاختبارات الثلاثة أطلقتني إلى الكتابة. غير أنَّ الكتابة ليسَتِ الطِّباعة. فبصراحة، لم أكن أعرف شيئًا عن عالَم الوكَلاء والمُحرِّرين، وألواح صفِّ الحروف، وصفحات التجارب الطباعيَّة. وعليه، فإنَّ الانتقال من الكتابة إلى نشر الكتاب استغرق سلسلة من الأحداث الخارجة عن سيطرتي.

ثلاثة تدخُّلات من العناية الإلهيَّة

كان مؤتمرٌ للكُتَّاب مُنعقدًا في پورتلاند بأُوريغُن، على مقربةٍ منِّي. وقد حالتِ التزاماتي السابقة دونَ حضوره. غير أنِّي دفعتُ كامل رسوم ذلك الحَدَث، فقط كي أحظى بمُقابلةٍ مدَّتُها عشر دقائق مع مُمثِّلٍ لدار هارپر أند رُو للنَّشر. وكنتُ أعلم أنَّ هارپر دارُ نشرٍ عامَّةٌ تضمُّ قسمًا دينيًّا قويًّا، ولها شُهرةٌ راسخة بالمطبوعات الجِدِّيَّة. ولكن من الخير المحض أنِّي لم أكُن أعلم أنْ لم يسبق أن أُتيح لكاتبٍ غيرِ منشورٍ له أن يتقدَّم إلى تلك الدَّار المرموقة.

وهكذا قابلتُ روي م. كارلِزل، المُحرِّر الدينيَّ في دار هارپر. وقد جرى لقاؤنا على ما يُرام، وطلب إليَّ أن أُرسِل إليه مشروع الكتاب كاملًا. فلبَّيتُ الطلب على وجه السُّرعة، مُتجاسِرًا أن أكتب في رسالتي الوصفيَّة: "هذا الكتاب هو لجميع الذين خيَّبتهم سطحيَّاتُ الثقافة الحديثة، ولا سيَّما الثقافة الدينيَّة الحديثة".

ثُمَّ جاوبني السيِّد كارلِزل بشأن مشروعي في الوقت المناسب. وسأذكر دائمًا أوَّل جملة من رسالته بحرفيَّتها: "بكلمة، نحنُ متحمِّسون حماسةً فائقة لمشروعك". ومن بين النصوص المبدئيَّة المُقدَّمة طوعًا إلى دار هارپر تلك السنة، وقد تخطَّت سبعَ مئة مخطوطة، كانت مخطوطتي هي الوحيدة التي قُبِلَت. أمَّا لماذا، فأمرٌ لم أستطِع تصوُّرَه!

كذلك أيضًا لم أعلم أنَّ تدخُّلًا ثانيًا للعناية الإلهيَّة كان جاريًا آنذاك. ففي أثناء محادثاتي مع السيِّد كارلزل، أرسل إلتُن تروبلُد خلاصة كتابي، مع توصيته الصادرة من القلب، إلى كلايتُن كارلسُن، الناشر الدينيِّ لهارپر أند رُو. وكان إلتُن قد نشر جميع كتبه الستَّة والثلاثين لدى دار هارپر، وله علاقةٌ وثيقةٌ وقديمةُ العهد بالسيِّد كارلسُن. فلا شكَّ أنَّ إلتُن فتح لي أبوابًا لولاه لبقيَت مُقفلة. ولم أعلَم شيئًا عن هذا التفصيل طوال المدَّة المنصرفة التي تخطَّت عشرين سنة، إنَّما

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أعلمَني به مؤخَّرًا السيِّد كارلسُن. أمَّا إلتُن فلم يذكره مرَّةً قطّ.

ولكنْ هناك المزيد. فلدى قبول مشروع الكتاب، واجهتُ مأزقًا عَسِرًا. إذ كانَتِ المسؤوليَّات في الكنيسة تستوجب كاملَ اهتمامي: تحضير المواعظ، زيارة المرضى، الإرشاد، وغيرها. ثُمَّ إنَّ تحديد المُهلة القصوى للطَّبع سبَّب لي ذُعرًا. فكيف يمكنني إنجاز الأمر؟ لقد علمتُ بالحقيقة أنَّ ذلك غير ممكن. فماذا أفعل إذًا؟ استولى عليَّ الارتباك، وكان الخِيار الوحيد الذي أمكنني تصوُّرُه أن أُقرِّر عدم كتابة الكتاب.

عند هذا المَفصِل الحَرِج، تبرهَنَت حكمةُ أُسلوبِ خدمتنا الجماعيّ. فإنَّ رُن وُدوارد، رئيسَ فريقنا، بادر إلى القيام بفعلِ نعمةٍ وتضحيةٍ محض، إذ تطوَّع لينوبَ عنِّي في جميع التزاماتي الوعظيَّة حتَّى أفرغ من الكتابة. كذلك أيضًا أدرك شيوخُنا فرادة هذه الفُرصة. ومن ثَمَّ، ففي سبيل الجماعة المسيحيَّة الكُبرى، أعفَوني إلى حينٍ بالفعل من جميع مسؤوليَّاتي الراعويَّة، ليتسنَّى لي أن أُكرِّس جميع طاقاتي للكتابة فحسْب. وقد عكفتُ على ذلك فعلًا، ما بين اثنتي عشرة وخمس عشرة ساعةً كلَّ يوم، على مدى ثلاثة وثلاثين يومًا. لا ريبَ أنَّ مزيدًا من العمل كان ينبغي القيامُ به، ولكنَّ بنية الكتاب الأساسيَّة اكتملت في فترة الكتابة المركَّزة تلك. ولم يُتَح لي قطُّ، من قبلُ ومن بَعد، مثلُ هذا التحرُّر من جميع الأعباء والمسؤوليَّات. وقد مثَّل ذلك في ذهني فعلًا مُلهَمًا ولا أنانيًّا من جانب شيوخ الكنيسة ورُن وسائر أعضاء الفريق. وهكذا كان أنَّ **فرح الانضباط** رأى النُّور.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

وها أنا أسألك بَعد: ما هذا الكتابُ حقًّا؟ إنَّه ليس سوى خربشاتٍ على وَرَق. ولكنَّه بنعمة الله قد استُخدِم- ويا للعجب!- طيلة السنين العشرين المنصرمة، كأداةٍ لتغيير حياة الناس. ومن أجل هذا أشكر الله. ثُمَّ ماذا بشأن

مستقبل الكتاب؟ ذلك أتركُه بسرور لتدخُّلاتِ الله في عنايته الفائقة. المجد لله وحدَه!

ريتشارد فوستر
أيلول (سبتمبر) ١٩٩٧

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

1. الانضباطاتُ الروحيَّة: بابٌ إلى الحُرِّيَّة

أجتازُ هذه الحياة كعابرٍ في طريقه إلى الأبديَّة، خُلِق على صورة الله، ولكن لمَّا حُطَّت تلك الصورة بات مُحتاجًا لأن يُعلَّم كيف يتأمَّل ويتعبَّد ويُفكِّر.

دونالد كوغَن

السطحيَّة لعنةُ عصرنا. وعقيدة الإشباع الفوريِّ مشكلةٌ روحيَّةٌ جوهريَّة. فالحاجة الماسَّة اليوم ليست إلى عددٍ أكبر من الأذكياء أوِ الموهوبين، بل إلى مُتعمِّقين.

إنَّ انضباطات* الحياة الروحيَّة تدعونا إلى الغوص في الأعماق مُجاوِزين العيشة السطحيَّة. إنَّها تدعونا إلى استكشاف الكهوف الداخليَّة في العالم الروحيّ، وتحثُّنا على أن نكون الجوابَ لعالَمٍ فارغ. وهذه نصيحة جون وُلمان: "يحسن بك أن تُقيم في الأعماق، ليُتاح لك أن تحسَّ وتتفهَّم أرواح الناس".[١]

ولا ينبغي لنا أن نُقاد إلى الاعتقاد أنَّ الانضباطات هي للجبابرة الروحيِّين فقط، وهي من ثَمَّ خارجَ مُتناوَلِنا، أو أنَّها فقط للمتأمِّلين الذين يُكرِّسون كامل

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

* لعلَّك تتساءل عن سبب نعت الانضباطات المعالَجة في هذا الكتاب بأنَّها "كلاسيكيَّة". فهي ليست كلاسيكيَّة فقط لأنَّها قديمة العهد، وإن كان قد مارسها أشخاص مُخلِصون على مرِّ القرون. إنَّما الانضباطات كلاسيكيَّة لأنَّها مركزيَّة في الاختبار المسيحيّ. وبشكلٍ أو بآخر، جميعُ أساتذة التأمُّل والتعبُّد قد أكَّدوا ضرورة الانضباطات.

وقتهم للصلاة والتعبُّد. هَيهاتِ هيهات! إنَّ الله يقصد أن تكون انضباطاتُ الحياة الروحيَّة للكائنات البشريَّة العاديَّة: للأشخاص الذين لهُم أعمال وأشغال، ويعتنون بأولاد، ويغسلون الصُّحون ويَجزُّون المسطَّحات الخضراء. وبالحقيقة أنَّ الانضباطات تُمارَس على أفضل نحوٍ في خِضَمِّ علاقاتنا بالزَّوجة أوِ الزَّوج، وبإخوتنا وأخواتنا، وبأصدقائنا وجيراننا.

كذلك لا ينبغي أيضًا أن نُفكِّر بالانضباطات الروحيَّة كما لو كانت نوعًا من الكدح والكدِّ يستهدف إقصاء الضَّحِك عن وجه الأرض. فالفرح هو اللازمة المُلازمة للانضباطات جميعًا. والغرض منها هو التحرير من العبوديَّة الخانقة والخانعة للمصلحة الذاتيَّة والخوف. فعندما تتحرَّر الروحُ الداخليَّة من كلِّ ما يُثقِل كاهلها، يكاد يستحيل أن يُوصَف ذلك بأنَّه كدحٌ وكدّ. حتَّى إنَّ الغناء والرقَّص، بلِ الهُتاف أيضًا، تغدو من مُميِّزاتِ انضباطات الحياة الروحيَّة.

وبمعنًى مُهمٍّ من المعاني، ليستِ الانضباطاتُ الروحيَّة صعبة*. فلا داعيَ لأن نكون متضلِّعين من اللاهوتيَّات جيِّدًا حتَّى نُمارس الانضباطات. ذلك أنَّ المُهتدينَ إلى المسيح حديثًا- وفي ما يتعلَّق بهذا الأمر: الأشخاص الذين ينبغي لهم بعدُ تسليمُ حياتهم ليسوع المسيح- يُمكنهم ويجب عليهم أن يُمارِسوها. إنَّما الشَّرطُ الجوهريُّ أن يكون لديهم توقٌ إلى الله، على حدِّ ما خطَّ كاتب المزامير: "كما يشتاق الأيِّل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله. عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحيّ" (المزمور ٤٢: ١ و٢).

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

فمرحبًا بالمبتدئين! وأنا أيضًا مُبتدئ، حتَّى بعد قضائي عددًا من السنين في ممارسة كلِّ انضباطٍ يتناوله هذا الكتاب... بل وخصوصًا بعدَ هذا. وكما يقول

* بمعنًى آخر، هي صعبةٌ حقًّا؛ وذلك هو الموضوع الذي سنتطرَّق إليه لاحقًا.

ثوماس مرتُن، فإنَّنا "لا نريد أن نكون مبتدئين. ولكنْ لنقتنعْ بحقيقةِ أنَّنا لَن نكون أبدًا إلَّا مُبتدئين، طيلةَ حياتنا!"[٢٢]

نقرأ في المزمور ٤٢: ٧ "غمرٌ يُنادي غمرًا". فربَّما في مكانٍ ما من غُرَف حياتك السرِّيَّة سمعتَ الدعوة إلى عيشةٍ أعمق وأكمل. ولعلَّك سئمتَ الاختباراتِ التافهة والتعليم السطحيّ. وبين حينٍ وآخرَ التقطتَ لَمحاتٍ أو ومضاتٍ تتعلَّق بما يتخطَّى ما قد عرفتَه. فأنت في داخل كِيانك تتوق إلى الانطلاق نحو الأعماق.

وأُولئك الذين سمعوا النداء النَّائيَ في داخل أعماقهم، والذين يرغبون في استِكشاف عالَم الانضباطات الروحيَّة، تُواجِهُهم في الحال صعوبتان، **الأُولى** هي فلسفيَّة. فإنَّ قاعدة عصرنا المادِّيَّةَ قد باتت واسعة الانتشار بحيثُ أثارت لدى الناس شكوكًا خطيرة بشأن قدرتهم على تخطِّي نطاق العالم الطبيعيّ. وكثيرون من العُلَماء المرموقين قد جاوزوا مثلَ هذه الشُّكوك، عالمينَ أنَّنا لا يمكن أن نُحصَر داخل علبةِ مكانٍ وزمان. غير أنَّ الشخصَ العاديَّ مُتأثِّرٌ بالعلم الشعبيِّ، وهذا مُتخلِّفٌ عن أيَّامنا جيلًا كاملًا ومُتحامِلٌ بشكلٍ متحيِّزٍ على العالم اللامادِّيِّ.

ويصعب أن نُغاليَ في وصف مدى تشبُّعِنا بعقليَّة العِلم الشعبيّ. فالتأمُّل مثلًا، إذا سُمِح به أصلًا، لا يُعدُّ لقاءً بين الإنسان والله، بل تلاعبٌ سيكولوجيّ. ويحتمل الناس عادةً خوضًا وجيزًا في "رحلة الاستبطان الذاتيَّة"، ولكنْ لا يلبثُ أن يحينَ وقتُ مواصلة الشؤون الواقعيَّة في عالَم الواقع. فنحن نحتاج إلى الشجاعة كي نتخطَّى تحامُل عصرنا، ونؤكِّدَ معَ خِيرَةِ عُلَمائنا أنَّ في الوجود ما يُجاوِزُ العالَمَ المادِّيّ. وبأمانة فكريَّة، ينبغي أن نكون على استعداد لأنْ ندرس ونستكشف الحياة الروحيَّة بمثل الدِّقَّة البالغة والعزم الوطيد اللَّذَين نُوظِّفهما في أيِّ ميدانٍ من ميادين البحث.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أمَّا الصعوبة **الثانية** فهي صعوبة عمليَّة. ذلك أنَّنا لا نعرف تمامًا كيف نمضي في استكشاف الحياة الداخليَّة. ولم تكُن الحال دائمًا على هذا المنوال. ففي القرن الأوَّل وقبلَه، لم يكن ضروريًّا إعطاءُ تعليماتٍ بشأن كيفيَّة "القيام" بانضباطات الحياة الروحيَّة. وقد دعا الكتاب المقدَّس الناس إلى مُمارَساتٍ من قبيل الصوم والصلاة والتعبُّد والاحتفال، غير أنَّه لم يُعطِ تقريبًا أيَّة تعليماتٍ بشأن القيام بتلك المُمارسات. ومن السَّهل أن نرى سبب ذلك. فإنَّ هذه الانضباطات قد مُورِسَت تكرارًا، كما كانت جزءًا من الحضارة العامَّة بحيثُ عرف الجميع "كيف" تُمارَس. فمثلًا، كان الصَّوم عامًّا جدًّا بحيث لم يُضطرَّ أحدٌ لأنْ يسأل ماذا يأكل قبل الصِّيام، أو كيف يُفطِر، أو كيف يتجنَّب الدَّوخة وهو صائم، ما دام الجميع يعرفون ذلك أصلًا.

غير أنَّ هذا لا ينسحب على جيلنا. فثمَّة اليومَ جهلٌ مُطبِق للنَّواحي الأكثرِ بساطةً وعمليَّةً في الانضباطات الروحيَّة الكلاسيكيَّة كُلِّها تقريبًا. من هنا وجبَ أن يتضمَّن أيُّ كتابٍ يُكتَب في الموضوع توجيهًا عمليًّا محدَّدًا بشأن كيفيَّة القيام بالانضباطات المعهودة. إنَّما لا بدَّ من كلمة تحذير تُطلَق من أوَّل الطريق: أن نعرف الآليَّات أمرٌ لا يعني أنَّنا نُمارِس الانضباطات. فإنَّ الانضباطاتِ الروحيَّة هي حقيقةٌ داخليَّةٌ وروحيَّة، وتوجُّهُ القلبِ الداخليُّ أهمُّ بكثيرٍ جدًّا من الآليَّات للإقبال إلى لُبِّ الحقيقة في الحياة الروحيَّة.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

وفي حماستنا لممارسة الانضباطات، قد نُخفق في ممارسة الانضباط الذاتيّ. فالحياة المَرْضيَّة أمام الله ليست سلسلةً من الواجبات الدينيَّة. إنَّما لنا أمرٌ واحد نفعلُه، ألا وهو أن نختبر حياةَ علاقةٍ وثيقةٍ بالله "أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظلُّ دوران" (يعقوب ١: ١٧).

عبوديَّة العادات الرَّاسخة

اعتدنا أن نُفكِّر في الخطيَّة كأفعال عصيانٍ لله مُنفردة. وهذا صحيحٌ بالقَدْر الذي يؤول الأمر إليه، ولكنَّ كلمة الله المقدَّسة تتخطَّى هذا أكثرَ جدًّا*. ففي رسالة رومية يشير الرسول بولس تكرارًا إلى الخطيَّة بصفتها حالةً تُعذِّب البشر جميعًا (مثلًا، رو٣: ٩- ١٨). والخطيَّة، من حيث كونُها حالة، تُنفِّذ مُبتغاها بواسطة "أعضاء الجسد"، أي من طريق عادات الجسد الراسخة (رو٧: ٥ وما يلي). وليس من عبوديةٍ تمكن مقارنتها بعبوديَّة عادات الخطيَّة الراسخة.

يقول الكتاب في إشعياء ٥٧: ٢٠ "أمَّا الأشرار فكالبحر المضطرب، لأنَّه لا يستطيع أن يهدأ، وتقذفُ مياهه حمأةً وطينًا". فإنَّ البحر غيرُ مُضطرٍّ لأنْ يفعل أيَّ شيءٍ خاصٍّ لكي يُنتِج حمأةً وطينًا؛ إذ إنَّ ذلك نتيجةٌ لحركاته الطبيعيَّة. وهذا أيضًا يصحُّ فينا حين نكون في حالة الخطيَّة. إذ إنَّ حركاتِ حياتِنا الطبيعيَّةَ تُنتِج حمأةً وطينًا. فالخطيَّة جزءٌ من تركيبة حياتنا الداخليَّة. ونحن لا نحتاج إلى أيِّ جهدٍ خاصٍّ كي نُنتجَها. فلا عجب إن شعرنا بأنَّنا عالقون في فَخّ.

إنَّما أُسلوبنا المُعتاد في التصدِّي للخطيَّة المُتأصِّلة فينا هو أن نشنَّ هجومًا مباشرًا عليها. ونحن نتَّكل على قوَّة إرادتنا وعزيمتنا. فمهما كانَتِ المسألة لدينا- غضبًا أو خوفًا أو مرارةً أو شراهةً أو كبرياءَ أو شهوةً أو سوءَ استخدامٍ للمادَّة- نعقد عزمنا على ألَّا نُعيد الكرَّة؛ كما أنَّنا نُصلي ضدَّها ونحارب ضدَّها ونوجِّه إرادتنا ضدَّها. غير أنَّ الجهاد عبث بِعَبث، ثُمَّ نجد أنفُسنا مرَّةً أُخرى مُفلسينَ أدبيًّا، أو أسوأَ بَعد: مُبالغين جدًّا في التفاخُر ببرِّنا الخارجيِّ بحيث تكون "القبورُ المُبيَّضة" وصفًا لطيفًا لحالتنا. وفي كُتيِّب مُمتاز، عنوانه "التحرُّر من الأفكار الأثيمة"، يقول

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

* الخطيَّة مسألةٌ شديدة التَّعقيد بحيثُ تشتمل اللُّغة العبريَّة على ثماني كلماتٍ مختلفة تُشير إليها، والثماني كلُّها موجودةٌ في الكتاب المقدَّس.

كاتبُه هَيني آرنولد: "ينبغي أن نوضح بكلِّ جلاء أنَّه ليس في وسعنا أن نُحرِّر قلوبنا ونُنقِّيَها بإعمالِ **إراداتنا** الخاصَّة".[٣]

وفي رسالة كولوسِّي يذكر الرسول بولس بعض الضوابط الخارجيَّة التي يستعملها الناس للسيطرة على الخطيَّة: "لا تمسَّ ولا تذُق ولا تجسّ". ثُمَّ يُضيف أنَّ لهذه الفرائض مظهرَ حكمة بعبادة يفرضها المرء بإرادته الذاتيَّة (كو٣: ٢٠- ٢٣). والتعبير المُترجَم "بعبادةٍ نافلةً" (ع ٢٣) جاء في اللغة الأصليَّة "بعبادةِ إرادة" - ويا له من تعبيرٍ كاشف ووصفٍ دقيق لجزءٍ كبيرٍ من حياتنا! فاللَّحظة التي نشعر فيها بأنَّنا نقدر على النجاح وإحراز الانتصار على الخطيَّة بقوَّة إراداتنا وحدِها هي اللحظةُ التي نكون فيها مُتعبِّدين للإرادة. أليس من دواعي السُّخرية أنْ ينظر بولس إلى مجهوداتنا الأكثر إجهادًا في مسيرتنا الروحيَّة ويدعوها "عبادةَ إرادة" باعتبارها ضربًا من عبادة الأوثان؟

إنَّ قوَّة الإرادة لن تنجح أبدًا في التَّصدِّي لعادات الخطيَّة المتأصِّلة في أعماقنا. وحسبَ قول أميت فُوكس: "حالَما تُقاوِم عقليًّا أيَّة حالة غير مرغوبة أو مطلوبة، تَمنحها بذلك مزيدًا من القوَّة التي ستستخدمها ضدَّك، وتكونُ قد استنفدتَ مواردَك الخاصَّة إلى ذلك المدى عينه".[٤] كذلك خلص هَيني آرنولد إلى القول: "ما دمنا نعتقد أنَّنا نستطيع أن نُنقذ أنفسنا بقوَّة إراداتنا الذاتيَّة، فنحن إنَّما نجعل الشرَّ في داخلنا أقوى منه في أيِّ وقتٍ آخر".[٥] وقد اختبر هذه الحقيقةَ عينَها جميعُ الكُتَّاب الكبار الذين تطرَّقوا إلى حياة التأمُّل والتعبُّد، من القدِّيس أُغسطينوس إلى القدِّيس فرنسيس الأسِّيزي، ومن جون كالفن إلى جون وسلي، ومن تريزا الآفيليَّة إلى جوليان الزاهد.

Copyrighted Material
Onhir Printers & Publishers

قد تُنتج "عبادةُ الإرادة" مظهرَ نجاحٍ خارجيًّا إلى حين، ولكنْ في صُدوع حياتنا وشقوقها لا بدَّ أن تنكشف أخيرًا حالَتُنا الداخليَّة العميقة. ويصف السيِّد

المسيح هذه الحالة حين يتكلَّم عن برِّ الفرِّيسيين الخارجيّ: "مِن فضلة القلب يتكلَّم الفم... ولكن أقول لكم إنَّ كلَّ **كلمةٍ بطَّالة** يتكلَّم بها الناس سوف يعطون عنها حسابًا يوم الدين" (متَّى ١٢: ٣٤-٣٦). تَرى إذًا أنَّ الناس، بفضل الإرادة، يمكن أن يؤدُّوا عرضًا حسنًا إلى حين، ولكنْ عاجلًا أو آجلًا ستأتي تلك اللَّحظة الخالية من الحَذَر والتي سوف تنفلتُ فيها "الكلمة البطَّالة" لتكشف حالة القلب الحقيقيَّة. فإنْ كُنَّا مملوئين رحمةً وتحنُّنًا، فلا بدَّ أن ينكشف ذلك؛ وإنْ كُنَّا مملوئين مرارةً، فلا بدَّ أن ينكشف ذلك أيضًا.

ليس أنَّنا نُخطِّط أن نكون على هذا النَّحو أو ذاك. فلا نيَّةَ لدينا أن ننفجر غضبًا، ولا أن نُبديَ غُرورًا بغيضًا، ولكنْ حين نكون بين الناس يخرج ما **نحنُ** عليه. ومع أنَّنا قد نحاول بكُلِّ قوَّتنا أن نُخفيَ أُمورًا كهذه، تفضحُنا عيونُنا، أو ألسنتُنا، أو ذُقوننا، أو أيدينا، أو كاملُ لُغَةِ أجسامنا. فليس لقوَّة الإرادة دفاعٌ ضدَّ الكلمة الطائشة، ولا ضدَّ اللحظة الخالية من الحَذَر. إذ إنَّ الإرادة تُعاني العجزَ عينه الذي يتصِّف به الناموس: أنَّها تستطيع فقط أن تتعامل مع المظاهر الخارجيَّة. غير أنَّها عاجزةٌ عن إحداث التغيير الواجب في الروح الداخليَّة.

الانضباطاتُ الروحيَّة تفتح الباب

عندما نيأس من إحراز التغيير الداخليِّ بواسطة قوى الإرادة والتصميم البشريَّة، ننفتح على إدراكٍ جديدٍ عجيب: أنَّ البرَّ الداخليَّ هو عطيَّة من عند الله نتقبَّلها بالنِّعمة. فالتغيير المطلوب في داخلنا هو من عملِ الله، لا عملنا نحن. إذ إنَّ الحاجة تدعو إلى شُغلٍ داخليّ، والله وحدَه قادرٌ على أن يشتغل من الداخل. فنحن لا نستطيع أن نَبلغ أو نُحرِز برَّ ملكوت الله هذا، بل هو نعمة تُعطى إعطاءً.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers